فاتحة

الفكر الإسلامي اليوم مواجه بتحديات جمة. أخطرها الرؤى التي تضحي بالمستقبل من أجل الماضي، والرؤى التي تضحي بالماضي من أجل المستقبل. كان موقفي الاجتهادي ولا زال هو التطلع لمستقبل له وفاء أو وفاء له مستقبل.

وفي خضم الجدل الفكري المحتدم رأيت أن أتناول بالاجتهاد أهم قضايا الساعة وأن أقدمها للشورى وأخذ الرأي. وفي سبيل ذلك نظمت هيئة شؤون الأنصار ورشة فكرية أمها لفيف من العلماء والمفكرين وتدارسوا اجتهاداتي بحرية واقترحوا اقتراحات قبلت كثيرا منها وأضفتها لاجتهادي. ولكن النص الأخير المقدم هو اجتهادي وأتحمل ما جاء فيه أمام الله وأمام الناس.

ومع ذلك فقد عزمت على تقديمه لنخبة من علماء ومفكري الإسلام لدراسته وتداول الرأي بشأنه في منبر جماعي، بغية الاتفاق على رؤية مشتركة حول هذه القضايا تكون مرجعية جماعية لمواجهة التحديات الراهنة.

و الله ولي التوفيق.

مقدمة

المسلمون اليوم مختلفون مذاهب، وفرقا، ونحلا، ودولا. ومع ذلك فإن حبلا متينا يربط بينهم، فهم يقدسون القرآن تقديسا لا يماثله تقديس أية ملة أخرى لكتابها. وهم يحبون النبي محمدًا ﷺ بحميمية منقطعة النظير بين أية جماعة وقدوتها، وهم يتطلعون لمرجعية أخلاقية واحدة ويمارسون شعائر عبادية متماثلة. وهم يعظمون ماضيا ذهبيا مشتركا، وهم يتشوقون لمستقبل أمجد وأفضل. ومهما كانت عوامل الفرقة السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والجهوية بينهم فإن العوامل المشتركة المذكورة قد أورثتهم هوية مشتركة ووجدانا متحدا.

أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م في نيويورك وواشنطن أجبرت المسلمين لوقفة مع الذات، ولفتت أنظار العالم نحوهم بصورة غير مسبوقة في التاريخ الحديث.

وقفة المسلمين مع الذات أثمرت اجتهادات كثيرة غطى عليها صخب أقوال وأفعال الآخرين حول الإسلام والمسلمين.

بعض الكتاب والمفكرين من غير المسلمين أتحفوا هذا الاهتمام بالإسلام بكتابات نيرة عن الإسلام. كما أن بعضهم وإن لم يبرر أحداث نيويورك وواشنطن

الدامية التمس لها تفسيرا عقلانيا. ولكن دموية الأحداث وجراح ضحاياها من المدنيين الأبرياء جعلت صوت الشحناء والبغضاء يعلو ولا يعلى عليه.

هذا الصوت عبر عنه كثيرون أمثال: برنارد لويس[1]، رالف بيترز، وماليز روثفن، وفكتور هانسون. قالوا: المسلمون يعادون الغرب ويكرهونه لأنه يمثل حضارة ناجحة حافلة بالإنجازات وغالبة. بينما حضارة الإسلام حضارة يائسة بائسة آفلة. «إن غضبهم موجه لذواتنا لا لما فعلنا أو لم نفعل» على حد تعبير هانسون.

هذه مداخلات علماء ومفكرين، ولكن هنالك تعليقات ثيوقراطية أشد مرارة وإدانة. الولايات المتحدة أكثر الدول الغربية تدينا بدليل البيانات التي تقول: إن نسبة الأمريكيين الذين يعتقدون في وجود الله ٩٥٪ بينما في دول الاتحاد الأوربي «باستثناء آيرلندا» النسبة هي ٤٥٪، والمسيحية كسائر الديانات شهدت انتعاشا أصوليا منذ الثمانينات من القرن العشرين. ومن نتائج هذا الانتعاش أن المسيحية الإنجيلية أي التي تقول بتفسير حرفي للكتاب المقدس شهدت حماسة متجددة وصار كثير من قادتها نجوما في سماء الإعلام الأمريكي. كثير من هؤلاء قادوا موجة تلطيخ الإسلام بوقاحة فجة. قال بات روبنسون: هتلر كان سيئا ولكن ما يفعله المسلمون باليهود أسوأ! ووصف القس جيري فالويل النبي محمدًا ﷺ بالإرهابي. ووصف القس فرانكلين جراهام الإسلام بأنه دين خبيث.

كانت هذه الأوصاف معهودة في الماضي حتى بددتها كتابات مستشرقين منصفين. ولكن بعد الأحداث الأخيرة عاد كثيرون إلى الابنة القديمة.

إن للغضبة التي عبر عنها بعض المسلمين تفاسير موضوعية:

(1) انظر مثلا كتابه Bernard Lewis The Roots of Muslim Rage , 1990

أولا: خاضت الدول الأطلسية الحرب الأطلسية الأولى «١٩١٤- ١٩١٨»: ولدى نهاية الحرب أبرموا اتفاقية فرساي وفرضوا بموجبها واقعا دوليًا جديدا أخضعوه لمصلحة الدول الاستعمارية المنتصرة في الحرب. كان وضع البلدان الإسلامية العثمانية، ووضع ألمانيا القيصرية في سلام فرساي مهينا. والدليل على ذلك: أن يان سمتس رئيس وزراء جنوب أفريقيا في ذلك الحين قال للويد جورج رئيس وزراء بريطانيا: إن شروط هذا السلام إذا فرضت على المهزومين فإنها سوف تبذر بذور حرب بعد جيل من الزمان. واقتنع لويد جورج بضرورة تعديل شروط السلام، ولكن الأغلبية البرلمانية البريطانية حالت دون ذلك. أما القسمة العربية في تلك المظلمة فقد كانت جائرة فنالوا ما نالوا على يد سايكس/ بيكو ووعد بلفور.

ثانيا: خاضت الدول الأطلسية حربا ثانية «١٩٣٩- ١٩٤٥» وبعدها وضعت ترتيبات نظام عالمي جديد من أهم مبادئه: مبدأ تقرير المصير للشعوب مما أدى إلى تصفية الإمبراطوريات الأوربية.

ولكن في كثير من الأحوال بقيت بؤر كثيرة ضحاياها من المسلمين. وحتى في حالة إقدام الأمم المتحدة على اتخاذ قرارات لصالح هؤلاء الضحايا كما في حالة فلسطين وكشمير، فإن القرارات بقيت حبرا على ورق.

ثالثا: بعد نهاية الحرب العالمية الثالثة أي الحرب الباردة (١٩٤٨- ١٩٨٩م) احتلت الولايات المتحدة مركزا فريدا في السياسة الدولية. كانت السياسة الدولية أثناء الحرب الباردة تقوم على التوازن، ولكنها بعدها صارت تقوم على التفرد الأمريكي. قادة التيار المستنير في الولايات المتحدة قالوا: إن لأمريكا دورا كبيرا في بناء نظام دولي قائم على القانون والعدالة. وأن التطورات التكنولوجية الحديثة تعزز من فرص بناء عالم التكافل والقانون، فأفول الاتحاد السوفيتي، والعولمة، والقفزات

التقنية، سيما في عالم الاتصالات والتحول الديمقراطي في العالم، وجدوى اقتصاد السوق الحر، كلها عوامل تصب في هذا الاتجاه، وأن الظروف تؤهل أمريكا لقيادة العالم، على أن القيادة لا تعني الهيمنة؛ لأن القيادة تشمل القدوة، والتشاور والتنسيق مع الآخرين؛ بينما الهيمنة تقوم على الإملاء..

هذه المفاهيم وما قد تفضي إليه من عالم محكوم بالقانون الدولي وجدت رفضا تاما من تيار آخر أصدر تحليلات ورؤى سميت: مشروع القرن الأمريكي الجديد.. أي مشروع الهيمنة الأمريكية.

هذا التيار اعتبر أن إخضاع الولايات المتحدة للقوانين الدولية يهدد السيادة الأمريكية ويضر بالأمن القومي الأمريكي.

دعاة هذا التيار كونوا لجنة وقعت على مشروع القرن الأمريكي الجديد. وفي نوفمبر ٢٠٠٠م انتخب الشعب الأمريكي جورج بوش رئيسا له فاصطحب معه إلى السلطة عددا من أعضاء مشروع القرن الأمريكي الجديد أمثال ديك تشيني، وجون بولتون، وريتشاود بيرل، وبول ولفويتز... وغيرهم. هؤلاء ينتمون لمدرسة أستاذها ليو شتراوس الوافد من ألمانيا إلى أمريكا والذي صار أستاذ الفلسفة في جامعة شيكاغو في الخمسينيات من القرن العشرين.

آراء شتراوس معطونة في الفكر الفاشستي الأوروبي، وبعيدة كل البعد عن المصادر الليبرالية الأمريكية التي يمثلها في الماضي آباء الدستور الأمريكي، ويمثلها قادة أمريكيون معروفون مثل ويلسون، وروزفلت، وكندي وغيرهم. المحافظون الجدد والتسمية الأصح الراديكاليون اليمينيون يمثلون انقلابا فكريا سياسيا واكبه على الصعيد الديني تغلب المسيحية الإنجيلية على الاتجاهات البروتستانتية الليبرالية المعهودة في الولايات المتحدة الأمريكية. التياران: اليميني الراديكالي والمسيحي

الإنجيلي تدفقا في الحزب الجمهوري الأمريكي وكلاهما لأسباب سياسية ودينية تحالفا مع الأيدلوجية الصهيونية.

كان كثيرون في إسرائيل يخشون أن نهاية الاتحاد السوفيتي قد تجعل أمريكا زاهدة في العلاقة الاستراتيجية الخاصة مع إسرائيل. فقد كانت تلك العلاقة ضرورية في الحرب الباردة. ولكن ما فائدتها بعد الحرب الباردة؟ ومنذ نهاية الحرب الباردة صار كثيرون في إسرائيل يرددون مقولة: إن العدو الاستراتيجي القادم للحضارة الغربية هو الإسلام أو الأصولية الإسلامية. وهي فكرة رددها أمين عام حلف ناتو وقال بها كثير من الغربيين. ولكن قبل بروز هذه الاتجاهات تغلب تشدد الرئيس الأمريكي رولاند ريغان على لبرالية الرئيس الأمريكي جيمي كارتر[1].

وفي عهد ريغان[2] احتاج التشدد الأمريكي للحليف الجهادي الإسلامي في أفغانستان. واستطاع المجاهدون بدعم أمريكي وعربي وإسلامي أن يجبروا الاتحاد السوفيتي على الجلاء من أفغانستان. اكتسب هؤلاء بطولة وخبرة وصار لهم لا سيما لتنظيم «القاعدة» وزن كبير وقدرات قتالية فائقة. ولكن الأحزاب الجهادية التي استولت على حكم أفغانستان بعد انهيار النظام العميل لم يستطيعوا أن يحكموا البلاد بما يحقق أمنها واستقرارها. فاندفعت حركة تعبوية قتالية بدعم باكستاني واستطاعت أن تستولي على أكثر من ٨٠٪ من أراضي أفغانستان وأن تحقق قدرا من الأمن والنظام.

الولايات المتحدة تقبلت نظام طالبان لأنه ترياق مضاد لإيران، ولأنه حقق استقرارا يمكن من خلاله مد أنابيب بترول بحر قزوين، ولأنه حليف باكستان

(1) جيمي كارتر (ولد ١٩٢٤) الرئيس الأمريكي في الفترة ما بين ١٩٧٧-١٩٨٠م- الحزب الديمقراطي.

(2) رونالد ريغان (ولد ١٩١١)- الرئيس الأمريكي في الفترة ١٩٨١-١٩٨٨- الحزب الجمهوري.

حليف أمريكا في جنوب آسيا. ولكن هذه العلاقات بين الجهاديين والولايات المتحدة كانت خالية من أية أبعاد استراتيجية لذلك احتفظ كل طرف بهويته ونظرته للعالم وعندما اختفى العدو المشترك اتجه كل نحو أجندته الخاصة به. لذلك لم يجد الأمريكيون لا سيما اليمين الراديكالي المنتصر في انتخابات عام ٢٠٠٠م حاجة لأية مراجعات لسياساتهم نحو العالم الإسلامي بل واصلوا علاقاتهم مع نظم تقهر شعوبها، وواصلوا تحالفهم مع اليمين الإسرائيلي الصاعد المتشدد. كما أن حلفاء الأمس من الجهاديين تفاخروا بانتصارهم على دولة «الإلحاد» العظمى واتجهوا لمنازلة دولة «المجون» العظمى الظالمة والحامية للظالمين.

هجوم الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م طور أسلوب مواجهة الجهاديين للولايات المتحدة، ونقله من مناوشات إلى إعلان حرب. وأعطى تيار اليمين الراديكالي فرصته الذهبية للانطلاق من حق الدفاع عن النفس المشروع إلى الأحادية الاستباقية في إدارة الشؤون الدولية في الطريق إلى بسط الهيمنة الأمريكية المنشودة أصلا.

قبل هجوم الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م على نيويورك وواشنطن كان الأمريكيون يعتبرون أنفسهم في حصن حصين. وانطلقت أصوات حتى من بين حلفاء أمريكا تبدي قلقا من الهيمنة الأمريكية. على حد تعبير «درشبيقل» صحيفة ألمانيا الأولى: إن العولمة ترفع إعلانا مكتوبا عليه: صنع في أمريكا!.

وعندما وقع الهجوم التف الشعب الأمريكي حول رئيسه فحوله في لمح البصر من رئيس مشكوك في انتخابه إلى زعيم قومي. والتفت أغلبية العالم حول الولايات المتحدة. وعلى حد تعبير «لوموند» صحيفة فرنسا الأولى الناقدة غالبا للسياسات الأمريكية: «إننا جميعا أمريكيون»!. ولكن آخرين في أوروبا وآسيا وإفريقيا وأمريكا

الجنوبية أضمروا شماتة لما لحق بالمتغلب (الفتوة).

الحرب الأمريكية على أفغانستان التي اندلعت في ٧/ ١٠/ ٢٠٠١م وجدت سندا عالميا كبيرا دفاعا عن النفس. طالبان والقاعدة اختارا ألا يصمدان في الحرب، وبسرعة أخليا مواقعهما وذابا في أفغانستان والحدود الأفغانية الباكستانية. الحملة العسكرية الأمريكية نجحت في أهدافها العسكرية ولكن بسبب عدم التحضير الكافي لم تكن حاسمة بل ارتكبت الولايات المتحدة أخطاء بددت السند العالمي العريض:

أ) الحرب كانت عالية التقنية وركزت على قوة النيران والقوة التدميرية لذلك أصابت عددا كبيرا من المدنيين الأبرياء.

ب) التعامل مع أسرى الحرب بصورة لا إنسانية ومناقضة للقانون الدولي باعتبار أن هؤلاء الأسرى «إرهابيون» لا تنطبق عليهم معاهدة جنيف الرابعة الخاصة بأسرى الحرب.

ج) تحت مظلة الحرب الأمريكية الشاملة على «الإرهاب» انطلقت إسرائيل تصفي حساباتها مع الفلسطينيين باعتبار أن المقاومة للاحتلال إرهابا. ومهما ارتكبت من فظائع حماها حق النقض الأمريكي من مساءلة مجلس الأمن الدولي.

د) حبس عدد من «الجهاديين»[1] في سجون جوانتينامو (٦٠٠ شخص) لمدة عامين ونصف، وعوملوا معاملة مذلة، وحرموا من حقهم في الاحتكام للعدالة الأمريكية، وموورس معهم تدنيس المصاحف ضغطا نفسيا عليهم. قال لورد ستين القاضي وعضو مجلس اللوردات البريطاني: «إن حبسهم بهذه الطريقة وصمة عار

(1) أدعوهم الجهاديين؛ لأنه قتال بموجب فتوى ذاتية لا تنطبق عليها شروط الجهاد لذلك فهم جهاديون لا مجاهدون.

للعدالة الأمريكية وهو مناقض للقانون الدولي».

وبعد عام من الهجوم على نيويورك وواشنطن أي في سبتمبر ٢٠٠٢م أعلنت الولايات المتحدة بيانا عن استراتيجية الأمن القومي الأمريكي. أهم ما فيها: **حق شن حرب شاملة على الإرهاب بعون دولي أو بدونه، والإقدام على الهجوم الوقائي المنفرد، وعدم السماح لأية قوة أخرى في العالم أن تتأهل لتنافس الولايات المتحدة.**

كان تيار اليمين الراديكالي الأمريكي مصمما على غزو العراق؛ لأنهم يرون عدم السماح لأية دولة في المنطقة أن تقدر على تحدي الولايات المتحدة ولأنهم يعتبرون السيطرة على منابع النفط تدعم الهيمنة الأمريكية العالمية ولكنهم كانوا يبحثون عن مبرر كاف للغزو، وفي النهاية كان المبرر هو أن العراق يملك أسلحة دمار شامل ويخفيها عن المفتشين الدوليين، وأنه يرعى الإرهاب متصلا بالقاعدة.. بموجب هذه المبررات شنت الحرب على العراق خارج نطاق الشرعية الدولية.

وبعد نهاية الحرب الناجحة عسكريًّا، وسقوط النظام الحاكم اتضح أن الولايات المتحدة وحلفاءها طبخوا المعلومات لتبرير الحرب، وأن البلاد لا تملك أسلحة دمار شامل، وأنه لا توجد أية صلة بين النظام العراقي المخلوع وتنظيم القاعدة.

الهجوم الأمريكي العسكري على أفغانستان، والقاعدة، والعراق، حقق نصرا عسكريا ميدانيا حاسما، ولكن اتضح أن القوات المعنية قررت ألا تصمد في المواجهة بل تنسحب لتواصل حرب استنزاف. كانت القوات المسلحة الأمريكية قادرة دون صعوبة على هزيمة القوات المسلحة الأفغانية والعراقية. ولكن التعامل مع الأوضاع بعد هزيمة القوات النظامية يتطلب إحاطة بالواقع السياسي والاجتماعي في أفغانستان والعراق. هذه الإحاطة كانت غائبة، والنتيجة: أن الحرب بدأت يوم أن أعلنت نهايتها.

قال الجنرال جون ابي زيد قائد القيادة المركزية الأمريكية في نوفمبر ٢٠٠٣م: «إن المواجهات العسكرية التي نواجهها في أفغانستان تماثل عددا وضراوة ما نواجهه في العراق»[١].

وبصرف النظر عن المساجلات العسكرية فإن مقدرة طالبان والقاعدة على الصمود لكل هذا الوقت أكسبتهما شعبية واسعة. ومهما كانت تحفظات الآخرين على أساليبهما فإن تعبيرهما عن تظلمات المسلمين في مناطق كثيرة زاد من ذلك الكسب.

قال آدم جارفنكل: في استطلاع أجرته الاستخبارات السعودية بمشاركة أمريكية اتضح أن ٩٥٪ من السعوديين ما بين سن ٢٥ وسن ٤١ عاما يتعاطفون مع بن لادن.

ثورة الاتصالات والحاسوب فتحت مجالا جديدا للأفراد والجماعات غير الحكومية حتى صارت لهم قدرات جديدة. ففي ١٩٩٧م استطاعت جودي وليامز الناشطة الشعبية في فيرمونت أن تنظم عبر الإنترنت عملا أبرمت بموجبه اتفاقية لمنع الألغام الفردية رغم معارضة البنتاجون أقوى ذراع حكومي لأقوى حكومة.

وفي ١٩٩٩م استطاعت ١٥٠٠ من الجماعات والأفراد أن تنظم حشدا في سياتيل وعرقلوا اجتماعا مهما لمنظمة التجارة العالمية .. هذا المجهود خططوه ونفذوه عبر الإنترنت.

هذه الإمكانات استخدمها تنظيم القاعدة كوسيلة اتصالات، ودعاية، وكوسيلة تدريب. هذا الاستخدام الدعائي الفعال استمال رأيا عاما واسعا في العالم الإسلامي قال عنه بول إيدل- أحد خبراء الإنترنت: «صار الحديث العلني ضد الجهاديين يتطلب شجاعة بالغة. إن الرأي العام الإسلامي صار بفضل ذلك في غاية

(١) صحيفة وول ستريت ١٥/ ١١/ ٢٠٠٣م».

التشدد»- وقال جوناثان ستيفنسن: «بفضل تقدم التكنولوجيا واستخداماتها لم تعد معسكرات التدريب الأفغانية ضرورية».

الصمود القتالي، والتصدي، والدعاية الواسعة في غياب أية مرافعات مجدية بوسائل أخرى مكنت الجهاديين من الحصول على تأييد واسع لرأيهم وأساليبهم. بل شجعهم هذا التأييد للتطلع لولاية الأمر في العالم الإسلامي ورسم معالم خلافة إلكترونية تداعب خيال المسلمين.

جاء في تقرير جورج تنت مدير الاستخبارات المركزية الأمريكية أمام لجنة مجلس الشيوخ في ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٤م الآتي: « لقد حققنا انتصارات على القاعدة. ولكن نمو المشاعر العدائية لأمريكا لا سيما في أوساط السنة، وانتشار أساليب بن لادن التخريبية عبر وسائل غير تقليدية، يؤكدان أن تحديا خطيرا يواجهنا سواء استمر وجود القاعدة أو اختفت». التقرير أوضح أن أمريكا حققت نصرا تكتيكيا على القاعدة. ولكنها تخسر الحرب الاستراتيجية؛ لأن التعبئة المضادة لأمريكا في العالم الإسلامي لا سيما عالم السنة، وتجارب بن لادن القتالية التي انتشرت في أماكن كثيرة «يمدان المواجهة ضدنا بوقود مستمر» على حد تعبيره. هذا الزخم المعادي للولايات المتحدة اكتسب قوة من خلط السياسة الأمريكية بين المقاومة المشروعة ضد الاحتلال وأعمال العنف العشوائي لأغراض سياسية واعتبارها «إرهابا».

وإذا انفرد الجهاديون بالتصدي لرفع الظلم عن المسلمين، فإن صوتهم سيكون الأعلى في العالم، بل وسوف يستقطبون أعدادا كبيرة من شباب الأمة الإسلامية للنظام المستقبلي الذي يرونه. بالإضافة لذلك فإن مواجهتهم للقوى الدولية بأسلوب استباحة دماء مواطنيها سوف يجر للأمة الإسلامية التي تساكن أهل الغرب في بلدانهم والتي تسكن العالم الإسلامي الجغرافي عداءً دوليًا واسع النطاق.

من النتائج غير المباشرة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م إطلاق العنان لمفكرين وكتاب ودعاة في العالم العربي الإسلامي عامة والعالم العربي خاصة العالم المستقر في قاع العالم الإسلامي- والذي صار مضرب المثل في الضياع حتى أن رالف بيترز قال: «ينبغي أن تعتبر البلدان العربية من سكان العالم الإسلامي شعوبا عاجزة عن التحول البناء»[1]- إطلاق العنان لهم لبحث أسباب هذا الجمود والتخطيط للنهضة.

من الاجتهادات الهامة في هذا الصدد تقارير التنمية الإنسانية العربية للأعوام ٢٠٠٢، ٢٠٠٣، ٢٠٠٤، ركز التقرير الأول «٢٠٠٢م» على وجود ثلاث نواقص تعوق بناء التنمية الإنسانية العربية هي: الحرية- المعرفة- و«تمكين المرأة». التقرير الثاني «٢٠٠٣» ركز على مسألة نقص المعرفة وحدد خمسة مطالب:

- إطلاق الحريات العامة وضمانها هو الحكم الصالح.
- نشر التعليم في كل مجالاته.
- تعميم التطور والبحث التقاني.
- التحول نحو نمط إنتاج المعرفة.
- تأسيس نموذج معرفي عربي عام منفتح ومستنير يقوم على العودة لصحيح الدين، وتخليصه من التوظيف المغرض، وحفز الاجتهاد وتكريمه، والنهوض باللغة العربية، واستحضار إضاءات التراث المعرفي العربي، وإثراء التنوع الثقافي داخل الأمة ودعمه والاحتفاء به والانفتاح على الثقافات الإنسانية الأخرى.

التقرير الثالث «٢٠٠٤» ركز على قضايا الإصلاح السياسي وانتقد الواقع

(1) مجلة بارا مترز خريف ٢٠٠٢م.

السياسي الحالي نقدا صريحا وحدد شروط الإصلاح السياسي المطلوب.

هذه التقارير أضاءت شموعا في الرأي العربي والإسلامي والعالمي. ومع أن مؤلفيها من الخبراء الدوليين العرب إلا أن تمثيلهم كان ناقصا وغير متجانس، لذلك نجدهم أحيانا يذكرون أهمية العوامل الثقافية في الانحطاط وأحيانا يستخفون بها إذ قالوا: «السبب الرئيسي لإخفاق عملية التحول الديمقراطي في العديد من الأقطار العربية لا يرجع لمسائل ثقافية.»

أهمية تقرير عام ٢٠٠٢م أنه جاء في وقت أجبرت فيه حوادث الحادي عشر من سبتمبر المفكرين المسلمين لوقفة مع الذات: هل هذا الذي حدثا منا؟ هل يمثلنا؟ ما هو موقفنا منه؟. كما جاء في وقت تقاطرت فيه المبادرات الخارجية حول الإسلام والمسلمين.

إن الإدارة الأمريكية تتساءل عن أسباب هذا العداء والعنف للعمل على إزالتها. كثير من الكتاب تناولوا تلك الأسباب ذاكرين تظلم المسلمين، ودور السياسات الأمريكية في ذلك الظلم، وعدوانية السياسات الإسرائيلية في المنطقة وحماية أمريكا لها. ولكن ها هو التقرير يركز على أن التطرف والإرهاب يعودان لأسباب داخلية متعلقة بالافتقار للديمقراطية وبنقص معدلات العدالة الاجتماعية وضيق آفاق الحياة أمام أجيال الشباب.

من هذا المنطق انطلق مشروع الشرق الأوسط الكبير وفحواه: «طالما تزايد عدد الأفراد المحرومين من حقوقهم السياسية والاقتصادية فإن المنطقة ستشهد زيادة في التطرف والإرهاب والجريمة الدولية والهجرة غير المشروعة».

لا أحد ينكر بسطة الطغيان في المنطقة المعنية، ولا أحد ينكر المطالب الشعبية الملحة في المنطقة منادية بالديمقراطية قبل وبعد حوادث الحادي عشر من سبتمبر،

ولكن ينبغي ألا ننسى أن عدوانية السياسات الأمريكية وتحالفها مع العدوان الإسرائيلي يشكلان أسبابا هامة للتطرف والإرهاب في المنطقة.

تناول كثير من الكتاب تحليل السياسة الأمريكية. ويرى جوزيف ناي مؤلف كتاب «**تناقضات القوة الأمريكية**» أن لأميركا قدرات فريدة. ولكن إذا أصرت على سلوك انفرادي واتسمت سياساتها بالغطرسة والأحادية، فإنها سوف تدفع الآخرين من دول وجماعات غير حكومية للعمل بوسائلها ضدها.

المراجعة المطلوبة في منطقة الشرق الأوسط لجعل السياسة الأمريكية ركنا في استقرار المنطقة:

تتطلب السياسة الأمريكية المراجعة في جوانب عديدة أهمها خمسة هي:

- البترول سلعة استراتيجية ولها أهميتها الصناعية، والزراعية، والتجارية والعسكرية. وسياسة السيطرة على منابع البترول وبالتالي السيطرة العالمية تشكل توجها إمبرياليا يتناقض مع مصالح الآخرين. والنهج الصحيح هو أن يخضع موضوع البترول هذا لإرادة منتجيه على أن يدخلوا في تفاهم استراتيجي مع المستهلكين للبترول وأن تتاح الفرصة لآلية السوق أن تحكم ظروف الإنتاج والاستهلاك.
- مراجعة العلاقة مع إسرائيل للكف عن استخدامها حصان طروادة في المنطقة.
- الكف عن استخدام النظم الحاكمة في المنطقة كشرطي حراسة للمصالح الأمريكية في المنطقة على حساب الشعوب.
- إيجاد سياسة مبدئية خالية من ازدواج المعايير لاحتواء أسلحة الدمار الشامل.

- جلاء القوات الأمريكية من المنطقة على أساس مفاهيم جديدة للأمن الإقليمي والدولي، مفاهيم تحترم الشرعية الدولية وتؤيدها شعوب المنطقة.

إن التوتر العربي الإسرائيلي من مصادر التطرف والعنف في المنطقة وهو قابل للحل بل والتطبيع ضمن المبادئ الخمسة الآتية:

- قيام دولتين متعايشتين سلميا بين النهر «الأردن» والبحر الأبيض المتوسط.
- أن يكون للعرب داخل الوطن العبري حقوق مواطنة متساوية.
- تطبيع مواطنة اليهود المتساوية في البلاد العربية وفي سائر أنحاء العالم.
- تصفية المستوطنات اليهودية المغروسة في المناطق المحتلة عام ١٩٦٧م.
- كفالة حقوق اللاجئين الفلسطينيين بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٩٤.

مشروع الثمانية الكبار

منذ يوليو ٢٠٠٤ م تحول مشروع الشرق الأوسط الكبير إلى مشروع « الثمانية الكبار».. المآخذ الهامة على هذا المشروع هي:

أ. أنه انتقى أسبابا معينة للتطرف والإرهاب وترك أسبابا أخرى أكثر أهمية.

ب. أنه ركز على فضاء جغرافي سماه الشرق الأوسط بينما المنطقة تحركها انتماءات أخرى ثقافية كالإسلام، والعروبة، ولا يمكن القفز فوقها.

ج. كما أن المرجعية الجغرافية يودي بجدواها الشذوذ الإسرائيلي الذي لا يمكن تخطيه.

الشراكة من أجل المستقبل

في مايو ٢٠٠٤م عقد مؤتمر القمة العربي الذي أطلق مبادرة: مسيرة التطور

والتحديث وأعقب ذلك الملتقى الجامع بين الحكومات الثمان والدول العربية فكونوا ما سمي: الشراكة من أجل المستقبل.

هذه الشراكة عقدت في غياب كامل للمجتمع السياسي والمدني العربي صاحب المصلحة الحقيقية في التحول الديمقراطي. كثير من الدول العربية تعلن الرغبة في الإصلاح السياسي ولكنها لا تدفع استحقاقات هذا الإعلان.

يحلو لكثير من الدول أن تقول أن الإصلاح ينبع من الداخل. ولكن أجهزة الأمن تقمع أصوات الديمقراطية في الداخل وأجهزة الإعلام الرسمي تعمل بكل طاقتها لتزييف إرادة التحول الديمقراطي.

النظم التسلطية في العالم الإسلامي عامة وفي العالم العربي خاصة تعاني الآن من أزمة حقيقية. وتحاول امتصاص الأزمة بإجراءات إصلاحية زخرفية . والمؤسف أن الشراكة من أجل المستقبل تساعد على هذه الحيل.

المطلوب أن تنتعش القوى السياسية والاجتماعية المنظمة القادرة على التعبئة الشعبية الداخلية والتعبئة الخارجية للضغط من أجل الإصلاح الحقيقي. هؤلاء هم أدوات قوة الدفع الحقيقية من أجل التحول الديمقراطي.

المؤسف أن الولايات المتحدة لا تقيم لهذه القوى وزنا وتكتفي ببحث مشروعات الإصلاح السياسي مع حكومات لا تتعامل مع المشروعات إلا لإفراغها من محتواها أو تتعامل مع منظمات مجتمع مدني أجنبية الإرادة.

إن كثيرا من منظمات المجتمع المدني أسماء على غير مسمى؛ لأنها واجهات لحكومات، أو لجهات أجنبية، أو خاضعة لإدارة فردية لا تقيم للمشاركة وزنا. هذه التشوهات سوف تجرفها الإصلاحات الديمقراطية القادمة.

الموقف الأمريكي من الإصلاح الديمقراطي ما زال هشا والدليل على ذلك

متوافر في التصرفات الأمريكية في السودان. عندما زار السيد كولن باول السودان في يوليو ٢٠٠٤م للإطلاع على أحوال دارفور التقى بالجهات الرسمية وطلب لقاء ممثلي القبائل وأعرض تماما عن مقابلة الأحزاب السياسية، ومنظمات المجتمع المدني، اللبنات الحقيقية للممارسة الديمقراطية!.

ما زالت الإدارة الأمريكية ترفع شعارات الديمقراطية ولكنها لا تقيم وزنا في الواقع إلا للجهات الرسمية، أو الفصائل المسلحة، أو التكوينات القبلية!!

هذا النهج يأتي بنتائج عكسية لقضية الإصلاح السياسي في المنطقة. كذلك وبالنظر للكراهية التي لصقت بالولايات المتحدة جراء سياساتها الخاطئة وتحالفاتها مع الظلمة والمعتدين فإن هذه السلبيات تؤذي قضية الإصلاح.

الرافع الأمريكي مهم للدفع بالإصلاح للأمام ولكن هذا يوجب مراجعة السياسات الأمريكية في المنطقة للتخلي عن الظلم والعدوان وازدواجية المعايير والعمل على أن تكون الشراكة من أجل المستقبل ثلاثية تشمل الدول الثمان، والدول العربية، والمجتمع السياسي والمدني العربي.

لا ينبغي أن نعتبر السياسة الأمريكية غير قابلة للتغيير، فما دامت هناك حرية فإن السياسات الفاشلة سوف تكشف وتنتقد ويمكن أن يعقب ذلك الإصلاح.

قال الأستاذ مالك بن نبي في الستينيات : إنه يتوقع أفول العملاقين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. وكان تعليقي: أن هذا الأفول منتظر للاتحاد السوفيتي لغياب الحرية ولغياب النقد. والنقد كما قال عمانويل كانط هو أفضل وسيلة للبناء اكتشفها الإنسان، مرددا قول عمر ﷺ : «رحم الله امرءا أهدى إلي عيوبي». أما الولايات المتحدة فإن حرية النقد كفيلة بإنقاذها من التهلكة. هذا الفهم عززه سخاروف أبو القنبلة النووية السوفيتية الذي نشر في السبعينيات كتابا بعنوان:

«بلادي والعالم»، قال فيه: أن الإصلاحات العظيمة التي حققها الاتحاد السوفيتي لن تجدي في التنافس مع الغرب لغياب الحرية، فالحرية هي سر التقدم والنجاح.

اتخاذ القرار في الولايات المتحدة ليس أحاديا ويتعرض القرار للرأي والرأي الآخر، والنقد والمساءلة هناك أمر عادي.

وفي نطاق السياسة الأمريكية نحو السودان كانت الولايات المتحدة في أواخر التسعينيات من القرن الماضي تقوم على احتواء وعزل النظام السوداني. ولكن هذه السياسة روجعت في مطلع القرن الجديد. وعندما انفجرت أزمة دارفور في عام ٢٠٠٢م كان اتجاه السياسة الأمريكية في البداية أن يترك أمر دارفور تعالجه الحكومة السودانية، وأن تركز المجهودات الدولية على قضية السلام الرئيسية في السودان ومفاوضات الحكومة والحركة الشعبية. ولكن الرأي العام العالمي أجبر الإدارة الأمريكية على التراجع. والآن نشهد أن الولايات المتحدة مالت بكل وزنها لدعم اتفاقية السلام السودانية التي وقعت بين الحكومة السودانية والحركة الشعبية باعتبارها اتفاقية السلام الشامل. هذه الاتفاقية لن تحقق سلاما شاملا ونظام الحكم الذي سوف تقيمه سيكون أقرب إلى شمولية ذات رأسين. القوى الشعبية السودانية والقوى المستنيرة الدولية ستعمل لجعل السلام عادلا وشاملا والتحول الديمقراطي حقيقيا. هذه المواقف سوف تختبر صدقية الموقف الأمريكي من الديمقراطية.

إن واقعنا السياسي يعاني من تراث الاستبداد القديم الذي عبر عنه كثير من الفقهاء على حد مقولة ابن حجر العسقلاني: «وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه».

هذا التراث القديم خلف ذهنية قابلة للاستبداد وفي العصر الحديث استصحب الطغاة أساليب القمع المستمدة من الفاشستية الحديثة ومن التطبيق البيروقراطي

للماركسية.

الثقافة الغالبة على مجتمعاتنا الإسلامية هي التي جعلت الاستبداد ممكنا بل مشروعا. إنها ثقافة طردت الحرية وغيبت العقل البرهاني وجعلت الاجتهاد في الدين مستحيلا.

ثقافتنا السائدة جعلت اجتهادات السابقين وهي اجتهادات إنسانية، مقدسة بقدسية نصوص الوحي. هذا معناه أننا جعلنا الحاضر والمستقبل حبيسا في الماضي.

فإن أبقينا على هذا الواقع الثقافي لا يرجى أن نحقق إصلاحا سياسيًّا أو اقتصاديًّا أو اجتماعيًّا؛ لأن كافة هذه الإصلاحات سوف تصطدم بالحائط الثقافي.

الفكرة التي قدست اجتهادات الأقدمين ترى أنها – أي الاجتهادات- قد انطلقت من نصوص الوحي، وبموجب المنطق الصوري قياسا وإجماعا فصلت للخلف ثوبا عريضا صالحا لكل زمان ومكان؛ لأنه يمثل إرادة الله لخلقه.. الإرادة التي نصت عليها مفردات الوحي ووسعتها اجتهادات السلف. هذه الفكرة متناقضة حتى مع فكر أئمة الاجتهاد أنفسهم. وإذا قارنا بين تسامح وتواضع الأئمة الأربعة وبين تحزب وتشدد من جاء بعدهم من مقلدين لهم لرسمنا صورة حية للانتقال من الحركة إلى الركود. هؤلاء الأئمة الذين صارت اجتهاداتهم أساسا للتمذهب والتحزب لم يكن التعصب لفتواهم مقصودهم، فقد أفتى الإمام أبو حنيفة[1] يوما فقال له أحد الحاضرين: «أهذا هو الحق الذي لا شك فيه:؟» فقال له الإمام: « وقد يكون الباطل الذي لا شك فيه». وعندما هم الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بفرض الموطأ على الأمصار (يجعله الأساس الرسمي للأحكام) قال

(1) أبو حنيفة النعمان(٨٠- ١٥٠هـ/ ٦٩٩- ٧٦٧م): ولد بالكوفة من أسرة فارسية، تعرض للسجن والتعذيب في العصرين الأموي والعباسي. من الأئمة الأربعة.

له الإمام مالك مؤلف الموطأ: «لا تفعل يا أمير المؤمنين، فقد سبقت إلى الناس أقاويل وسمعوا أحاديث، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم. فدع الناس وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم».

وقال الإمام أحمد بن حنبل[1]: «من قلة فهم الرجل تقليده الرجال في دينه».. لذلك فإن اعتبار اجتهادات الأقدمين مقدسة هي مخالفة صريحة لما دعى له أولئك الأئمة أنفسهم.

سوف نبين عدم شرعية التقليد، وعدم جدوى المنطق الصوري الذي أدى إلى قيد معرفي على الاجتهاد. الاجتهاد ضرورة دينية مستمرة ولدى أنصار الله الاجتهاد هو سنام الدين، فالمهدية لدى المدارس الإسلامية الأخرى مقيدة لدى الشيعة بسلسلة نسبية معينة، ولدى أهل السنة مقيدة بمواقيت إما إمامة القرن وإما آخر الزمان. أما المهدية لدى الإمام محمد المهدي فهي وظيفية، إنها وظيفة إحياء الدين كما أوضحنا في رسالتنا عن الإمام عبد الرحمن المهدي في ذكرى مرور قرن على مولده، والمهدية وإن كانت واحدة لما لها من مكانة روحية مكنتها من الدعوة لوضع نهاية للتمذهب المؤسس على منطق صوري، ومن تخطى الصور المعروفة للمهدية فإنها حركت دعوة وظيفية متجددة مع الأيام على نحو مقولة: **لكل وقت ومقام حال ولكل زمان وأوان رجال.**

الحاجة للاجتهاد وأدواته المشروعة

إن الأحكام التي اتفق عليها جمهور الفقهاء في كثير من القضايا لا تلائم عصرنا

(1) أحمد بن حنبل (١٦٤- ٢٤١هـ/ ٧٨١-٨٥٥ م): هو أحمد بن حنبل بن هلال الذهلي الشيباني المروزي البغدادي، اصله من مرو. ولد في بغداد ثم رحل إلى الكوفة والبصرة والشام والحجاز واليمن طالبا للحديث، تفقه على الشافعي ثم اجتهد لنفسه، من تصانيفه «المسند» من الصحاح، من الأئمة الأربعة.

مما يوجب اجتهادا جديدا، كما أن نصوص ومقاصد الشريعة أوسع من الأحكام التي استنبطها الجمهور مما يتيح المجال للاجتهاد الجديد والمتجدد أبدا.. فيما يلي أبين الحاجة للاجتهاد وأبين أدواته المشروعة التي تستوعب الحاجة للتجديد دون استلاب يخلص المريض من آلامه بقتله على نهج ما فعلت « البصيرة أم حمد[1].

أ- القرآن :

القرآن قطعي الورود، ولكن نصوصه ليست قطعية الدلالة. قال تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾[2]، وقال:﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾[3]، ووصف الإمام على آيات القرآن بأنها حمالة أوجه. وبيانا لذلك أستعرض المسائل الآتية:

- **هل يقول الإسلام بالجبر أم بالاختيار:**

الإنسان أهو مسير أم مخير ؟ القائلون بالجبر استشهدوا بآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[4]، والقائلون بالاختيار استشهدوا بآيات مثل:﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾[5].

(1) البصيرة أم حمد مثل شعبي سوداني يحكي عن قصة مفادها: أن ثورا أدخل رأسه في جرة من فخار (برمة) فاحتار الناس كيف يخلصوا كل من الثور والجرة في نفس الوقت واستشاروا «حكيمة» تدعى أم حمد فقالت لهم أولا: اذبحوا الثور، ولما ذبحوه لا زالت الجرة لا يمكن استعمالها لوجود الرأس بداخلها فقالت لهم: أكسروا البرمة.. وهو مثل يقال في الحكمة التي تريد التوفيق بين شيئين فتبددهما جميعا.

(2)سورة آل عمران الاية ٧.

(3)سورة البقرة ١٠٦.

(4)سورة الإنسان الاية ٣٠.

(5)سورة الإنسان الآية ٣.

- وما هي درجة التقوى المطلوبة؟. قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [1] وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [2].

- وهل تقبل التعددية الدينية؟ قال تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [3]، وقال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١١٤﴾ [4]. وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [5].

- وقال تعالى: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [6]، وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [7].

- وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [8]. وقال ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [9].

- وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [10]. وقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [11].

---

(1) سورة آل عمران الآية ١٠٢.
(2) سورة التغابن الآية ١٦.
(3) سورة الكافرون الآية ٦.
(4) سورة آل عمران الآيتان ١١٣-١١٤.
(5) سورة آل عمران الآية ٨٥.
(6) سورة النساء الآية ٧٧.
(7) سورة الحج الآية ٧٨.
(8) سورة البقرة الآية ٢٨٦.
(9) سورة البقرة الآية ٢٨٤.
(10) سورة الشورى الآية ٤٠.
(11) سورة الشورى الآية ٤٠.

- ووصفت الذات الإلهية بصفات مماثلة للبشر. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1].

- ووصفت الجنة بأوصاف مشابهة للمعهود في الدنيا. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[2].

فهم هذه الثنائيات -وهي كثيرة- يوجب تفقهاً وتدبراً على نحو ما حث عليه القرآن نفسه. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[3]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾[4].

ب. السنة:

قليل من السنة قطعي الورود. وكثير منها ظني الدلالة وفي الإحاطة بمعناها عقبات أساسية توجب اجتهادا كثيرا:

- النبي ﷺ منع تدوين أحاديثه وإلا لكانت دونت مثلما دون القرآن ولم يبدأ التدوين إلا بعد قرن من وفاة النبي ﷺ. إن الوهم والنسيان يدركان الرواية ما لم تدون.

- علم الحديث اهتم بالسند أكثر من المتن.

- تدوين الأحاديث في الصحاح مبوب حسب موضوعاتها لا حسب تواريخ النطق بها.

(1) سورة الشورى الآية ١١.
(2) سورة السجدة الآية ١٧.
(3) سورة محمد الآية ٢٤.
(4) سورة الفرقان الآية ٧٣.

• في الصحاح –مثلا –الإمام البخاري[1] يورد أحاديث عن أن القيامة سوف تقوم بعمر أصغر واحد من رهط حددهم. هذا ناقضه الواقع.

• في الصحاح أحاديث تتناقض مع العلم كالحديث عن الذكورة والأنوثة وأنه إذا غلب ماء الرجل كان ابنا وإذا غلب ماء المرأة كانت بنتاً. مع أن القرآن ينسب الذكورة و الأنوثة لماء الرجل: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾[2].

• وفي الصحح أحاديث تتناقض مع القرآن –مثلا –حديث أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه. وهذا يناقض قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[3]

• وأحاديث ذات دافع سياسي واضح كما ورد في صحيح البخاري عن الصبر على ظلم الولاة لأن من يأتي بعدهم حتماً أسوأ منهم. أو حديث ابن أبي بكرة الذي استشهد به في الامتناع عن القيام مع السيدة عائشة بأنه ﷺ قال :«لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»، وهذا الصحابي يعلم أن صحابة آخرين أكبر منه درجة قاموا معها. وهو على أية حال أحد ثلاثة حدهم للقذف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[4]، على اتهام المغيرة بن شعبة أي لا تقبل شهادته بنص الآية المبينة لحد القذف كما بينا آنفا.

❊❊❊

(1) البخاري (الإمام) (١٩٤- ٢٥٦هـ/ ٨٠٩- ٨٦٩م): محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بزدويه البخاري الجعفي، إمام أهل الحديث وصاحب «الجامع الصحيح» المعروف بصحيح البخاري.

(2)سورة النجم الآيتان ٤٥ و٤٦.

(3)سورة الأنعام الآية ١٦٤ وسورة الإسراء الآية ١٥ وسورة فاطر الآية ١٨ وسورة الزمر الآية ٧.

(4)عمر بن الخطاب (٤٠ ق. هـ-٢٥ ذو الحجة ٢٣ هـ/ ٥٨٢-٦٤٤م) هو عمر بن الخطاب ابن نفيل بن عبد العزى، العدوي القرشي.

• صحيح الإمام البخاري[1] مقدم على سواه، ولكن الإمام البخاري اتخذ في تمحيصه للأحاديث فقط جانب السند، فصنف سلاسل الرواة وصحح ما صحح منها وصرف نظره عما سواها. ولا شك أن صحة السند هي إحدى وسائل التصنيف ولكن كيف نضعها الوسيلة الوحيدة؟ إن ذلك يحجب عنا كثيرا من الحديث الحاوي لهدي النبوة فقط؛ لأن أحد الرواة مثلا مشهور بالنسيان أو يروي بالمعنى. كما أنه يدخل الكثير من الروايات المناقضة للقرآن وللواقع التاريخي المحقق وللعقل بدون أن يجري عليها أي نوع من التدقيق والمراجعة.

آليات الاجتهاد :

كان القياس والإجماع هما آليات الاجتهاد بالإضافة لآليات أخرى مختلف على حجيتها، القياس ليس محكما؛ لأنه لا يكون التشابه محكما أبدا وكذلك الإجماع لم يتحقق اللهم إلا في الأمور غير الخلافية. لا سبيل للخروج من محدودية المنطق الصوري هذا إلا بالركون لوسائل أخرى أجدى أهمها:

المقاصد: فلدى التعارض بين نصوص الجبر والاختيار فإن مقاصد الشريعة ترجح أن تكون آيات الاختيار هي المحكمة لأن إنكار الاختيار يهدم مسؤولية الإنسان عن أعماله وهذا يهدم الأخلاق.

الحكمة: في كثير من النصوص يذكر الكتاب والحكمة وهي ملكة متاحة للرسل ولغيرهم من البشر قال تعالي: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[2].

(1) البخاري (الإمام) (١٩٤- ٢٥٦هـ/ ٨٠٩- ٨٦٩م): محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بزدويه البخاري الجعفي، إمام أهل الحديث وصاحب «الجامع الصحيح» المعروف بصحيح البخاري.

(2) سورة البقرة الآية ٢٦٩.

وجاءت في القرآن إشارة للقمان الحكيم وغالب الظن أن لقمان هذا هو أركمان أو أرقمان أحد ملوك مروي العظام، وهو يصور في مقبرته بعين كبيرة تعبر عن الحكمة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾[1]. والأثر يقول الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

المصلحة: يقول نجم الدين الطوفي أن المصلحة مرجعية راجحة في الشريعة؛ لأنها تنشد: لا ضرر ولا ضرار.

العقل: على حد تعبير الإمام الشاطبي[2] فإن مطالب الشريعة لا تناقض مدركات العقول.

العدل: قال الإمام ابن القيم كلما تحقق به العدل هو من الشرع وإن لم يرد به نص.

السياسة الشرعية: وهذه تمكن قيادة المجتمع الشرعية أن تتخذ سياسات لم يرد بها نص ولا قياس ولا إجماع مثل ما فعله عثمان بن عفان ﷺ من توحيد نص المصحف، وإحراق النصوص الأخرى. وما فعله عمر[3] ﷺ من عدم توزيع أرض السواد غنيمة للمجاهدين وهلم جرا.

المعرفة: الاعتراف بالمعرفة التي يدركها الإنسان عن طريق العقل، والتجربة، والحواس، في أمر الكتاب المشاهد أي الطبيعة التي فطرها الله على سنن وقال: ﴿قَالَ

(1) سورة لقمان الآية ١٢.

(2) الشاطبي (الإمام) (٥٣٨- ٥٩٠ هـ) هو أبو محمد القاسم بن فيرة بن أحمد الشاطبي الرعيني (نسبة إلى ذي رعين اليمنية). ولد في مدينة شاطبة بالأندلس وإليها نسبته.

(3) عمر بن الخطاب (٤٠ ق. هـ-٢٥ ذو الحجة ٢٣ هـ/ ٥٨٢-٦٤٤م) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى، العدوي القرشي.

رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [1] وقال : ﴿ وَفِى ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [2].

استخدمت هذه الوسائل في اجتهاداتي وكانت النتيجة طائفة من المؤلفات اذكر منها : العقوبات الشرعية وموقعها من النظام الاجتماعي الإسلامي –جدلية الأصل والعصر –الدولة في الإسلام –المرأة وحقوقها في الإسلام إلى آخر القائمة التي عبر كتب، ورسائل ومحاضرات، زادت عن مائة مداخلة في كافة قضايا الفكر في الساحة. وقد رأيت أن أخرج هذا الكتاب وفيه جماع ما بحثت في كتبي وبحوثي الماضية في أهم القضايا التي نحتاج فيها لمراجعات مفهومية وسياسية واقتصادية واجتماعية ودعوية وخارجية (أي ضبط علاقتنا بالخارج)، وأؤكد أن عافية حاضرنا ومستقبلنا رهين بتلك المراجعات التي تؤدي للصحوة الثقافية.

صحوتنا الثقافية

الصحوة الثقافية مرتبطة بالإصلاح الديني لأن الدين هو الأساس الثقافي لمجتمعاتنا. هذه الصحوة توجب الآتي:

١- حقائق الوحي مفصلة في القرآن وسنة النبيﷺ .. القرآن قطعي ورودا وبعضه قطعي دلالة، ومنه ما هو ظني الدلالة. السنة القولية غالبا ظنية الورود وكذلك ظنية الدلالة. المجتهدون الأقدمون تناولوا هذه النصوص وقرروا بشأنها وفق اجتهاداتهم وعن طريق القياس والإجماع استنبطوا من النصوص المبادئ والأحكام للناس كافة. إن اتباع الخلف لاجتهادات السلف مطلب معرفي؛ لأن السلف إنما انطلقوا من الوحي المطلوب اتباعه تدينا. ولكن مصدر الوحي نفسه أنزل

(1) سورة طه الآية ٥٠ .

(2) سورة الذاريات .

معه الحكمة، ومنحنا العقل البرهاني وأمرنا باستخدامه، وبصرنا بالمصلحة وأوجب علينا اعتبارها، ونفى عنا الحرج، وألزمنا باعتبار المقاصد، وخلق الطبيعة وأودعها سننا راتبة وأمرنا اكتشاف تلك السنن لأنها مفاتيح تسخيرها لنا.. هذه الحقائق تأذن بتمكين إنساني كبير أراده الله للإنسان فصار الامتثال لأمر الله يدخل فيه التسليم بعطاء الإنسان، وهو عطاء إيماني، عقلي، تجريبي، وروحي فالإنسان من الناحية الروحية أيضا ليس مجرد متلق لأن عنده مفاتح الإلهام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ [1].. الإسلام لله يستصحب ولا ينفي التمكين الإنساني.

٢- المعرفة الإنسانية ليست مجرد تلقي نصوص الوحي وتوسيعها بالمنطق الصوري، إنما تشمل نصوص الوحي والتدبر فيها: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [2] و﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [3]. وتشمل المعرفة العقلية والتجريبية والإلهامية.

٣- وثقافتنا السائدة تفسر بعض النصوص القرآنية بأن الوحي قد أحصى كل شيء. هذا الفهم إذا سلمنا به معناه حجر حرية البحث العلمي فما علينا إلا استنباط الحقائق من النصوص. ومعناه نفي أية قيمة لعطاء الإنسانية الفكري والعلمي؛ لأن هذا العطاء إما مطابق لحقائق الوحي المحيطة بكل شيء فهو فضول، وإما مناقض لحقائق الوحي فهو باطل. هذا الفهم أشار لبطلانه كثيرون على حد تعبير ابن عقيل كما رواه ابن القيم: «**السياسة ما كان فعلا يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد**

(1) سورة الحديد الآية ٢٨.

(2) سورة محمد الآية ٢٤.

(3) سورة الفرقان الآية ٧٣.

عن الفساد وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به وحي».

٤- وثقافتنا السائدة تجعل الأخلاق مستمدة من أوامر الوحي ونواهيه فحسب، مع أن القرآن والسنة أنفسهما يؤكدان أن للأخلاق أسسا موضوعية أعلاها الإيثار، وأوسطها المعروف والمنكر، وأدناها المعاملة بالمثل. وفي الحالات الثلاث يترتب على الالتزام بها جزاء أخروي.

٥- وثقافتنا السائدة تفهم الولاء والبراء بصورة نافية للآخر الملي والدولي. منذ اجتهادات شهرها ابن تيمية[١] وحبرها أبو الأعلى المودودي[٢] وسيد قطب[٣] في العصر الحديث، فإن آية السيف وضعت حدا فاصلا بين المسلمين والآخرين، وهي أساس الولاء والبراء. هذا الفهم لا مكان فيه لتسامح أو تعايش مع الآخر الملي أو الدولي إلا بموجب طاعتهم لنا. ولا تقوم العلاقة بيننا وبين دار الحرب إلا على أساس امتثالهم لسيادتنا على حد تعبير محمد الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة. ولكن هذه التفاسير ليست قطعية بل هناك أسس تسامحية للتعامل مع الآخر الملي ومع الآخر الدولي وهناك آية ناصعة الوضوح في هذا الصدد ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾[٤].

(1) شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (٦٦١- ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣-١٣٢٨م): أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، وتيمية هي والدة جده الأعلى محمد، ولد بحران، وفي السابعة من عمره انتقل مع والده إلى دمشق هربا من التتار، وأثناء فتح عكا جاهد بسيفه ضد التتار. توفي مسجونا بقلعة دمشق.

(2) أبو الأعلى المودودي (١٩٣٠- ١٩٧٩م) مؤسس الجماعة الإسلامية في الهند عام ١٩٤١م ويعد من أكبر منظري الحركة الإسلامية الحديثة.

(3) سيد قطب (١٩٠٦ - ١٩٦٦م) المفكر الإسلامي المصري الشهير من جماعة الإخوان المسلمين. شغل عدة وظائف في وزارة المعارف، وعمل في الصحافة منذ شبابه، له مؤلفات عديدة، كتب في النقد الأدبي، والشعر، والقصة، كتاباته بعد التعذيب تشكل مولد الحركة الإسلامية المتطرفة.

(4) سورة الممتحنة الآية ٨.

إن خطر هذه المفاهيم الماضوية المنكفئة هو أنها جعلت اجتهادات بشر مثلنا مقدسة بقدسية الوحي وجعلت الامتثال لها طاعة لله مفروضة.

وهذه المعتقدات تتحول على يد الحركيين إلى مطالب يفرضونها على الآخرين ويكفرونهم إذا هم جادلوا في صحتها.

منذ حوالي عامين من الزمان صغت أطروحة بعنوان «نحو مرجعية إسلامية متجددة» تطرقت فيها لاستحقاقات الصحوة الثقافية والإصلاح الديني. ومنذ عام عرضتها على ورشة فكرية نظمتها هيئة شئون الأنصار ودعت إليها عددا كبيرا من المفكرين والعلماء السودانيين تداولوها وكانوا بين مؤيد وناقد.

وبعد تفكر في الموضوع رأيت أن أنشر ما استقر عليه اجتهادي، كما رأت هيئة شؤون الأنصار تنظيم مؤتمر أهلي حر ودعوة علماء ومفكرين يمثلون كافة الطيف الفكري الإسلامي السني والشيعي والصوفي والمستقل للمشاركة في اجتهاد جماعي.

السعي لتحقيق إصلاح ديني وصحوة ثقافية مطلوب بإلحاح أولا لإيجاد مرجعية مشتركة حول أهم قضايا الساعة، وثانيا لأن غياب مثل هذه المرجعية يفتح المجال واسعا لاجتهادات فردية وحماسات حركية تخطف مصير المسلمين، وثالثا لقفل الباب أمام تدابير خارجية تحاول طمس هوية المسلمين.

المطلوب الالتفاف حول مرجعية إسلامية متجددة تجانب الغلو وتقفل منافذ الغزو وتفتح الطريق لأجندة إسلامية تدافع عن حقوق المسلمين بأسلوب يحقق مقاصد الإسلام لا الأساليب التي مهما حسنت نواياها تحقق عكس مقاصدها.